العربية الذاكرة

مجلة ربع سنوية - العدد الثالث - أكتوبر ٢٠١٩

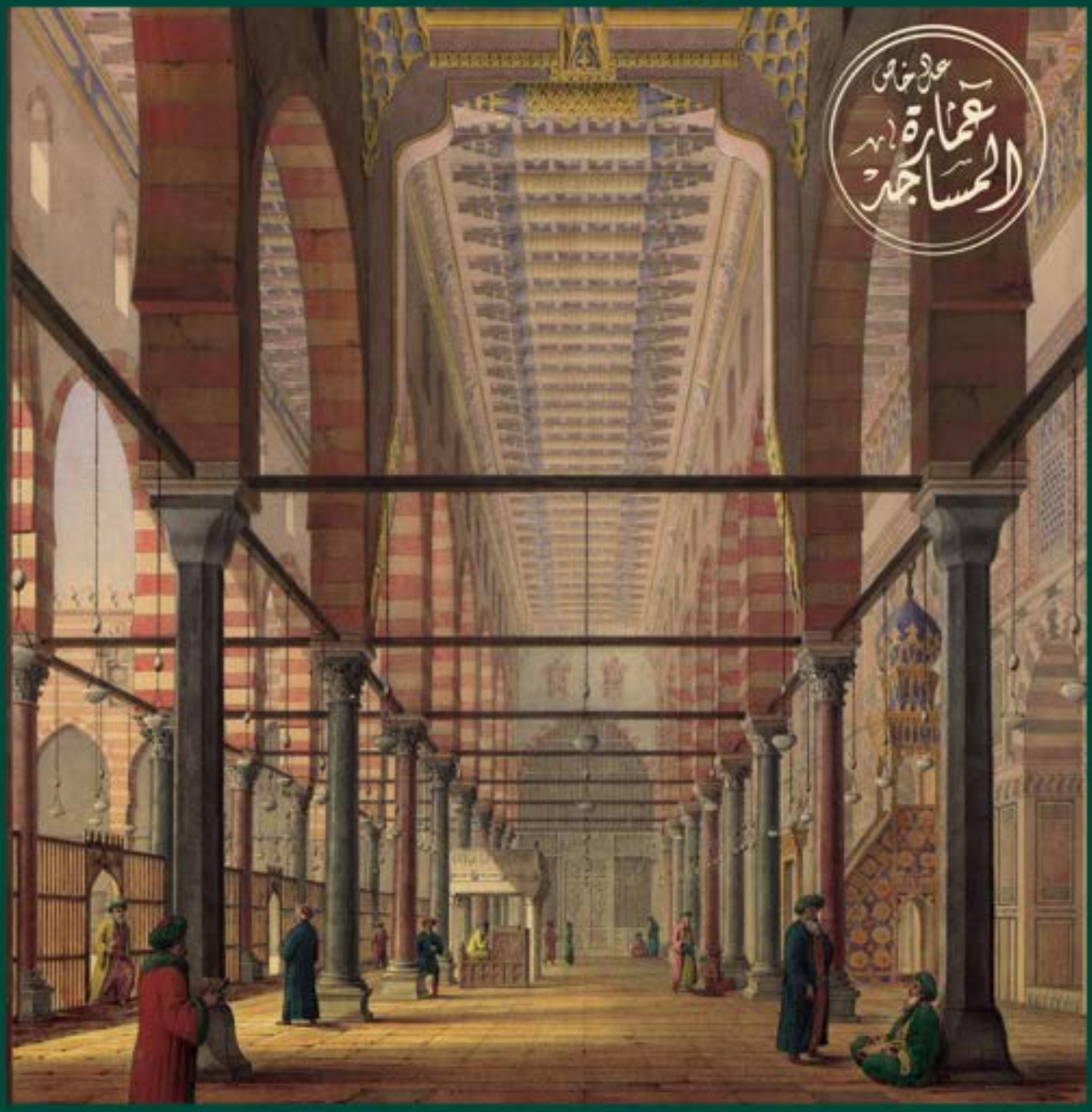

عدد خاص عن عمارة المساجد

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

من إصدارات مكتبة الإسكندرية

نفائس المخطوطات بمكتبة الإسكندرية

للحصول على مطبوعات مكتبة الإسكندرية؛ يُرجى الاتصال بمنفذ البيع:
تليفون: ٤٨٣٩٩٩٩ (٢٠٣)+ داخلي: ١٥٦٠–١٥٦٢
فاكس: ٤٨٢٠٤٧٦ (٢٠٣)+
البريد الإلكتروني: sales@bibalex.org

الفهرس

المساجد الجامعة وتطورها	٢
الجامع الأموي الكبير في مدينة دمشق	١٨
العمارة الدينية بمدينة سامراء	٤٤
الجامع الكبير بصنعاء	٥٤
هوامش وملاحظات حول المسجد الجامع بالقيروان	٦٢
مساجد مدينة فاس	٨٢
مساجد الموصل التاريخية	١٠٨
الآثار الإسلامية في الإسكندرية (المساجد العثمانية)	١١٦
المساجد التاريخية في المملكة العربية السعودية	١٢٤
مساجد موريتانيا	١٣٤
عمارة المساجد والمدارس في موسوعة «المزارات الإسلامية والآثار العربية في مصر والقاهرة المعزية»	١٧٤

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

الإشراف العام

أ . د . مُصْطَفى الفِقي

مدير مكتبة الإسكندرية

الهيئة الاستشارية

أ . د . أَيْمَن فُؤاد سَيّد

أ . د . أَشْرَف فَرّاج

د . مُحَمَّد الجَمَل

سكرتير التحرير

سُوزَان عَابِد

المراجعة والتصحيح اللغوي

فاطِمَة نَبيه

مُحَمَّد حَسَن

التصميم الجرافيكي والخطوط

الحَسَن عِصَام

خَالِد مُصْطَفى

الإسكندرية، أكتوبر ٢٠١٩

طُبعت برعاية

OFID
THE OPEC FUND FOR INTERNATIONAL DEVELOPMENT
Uniting against Poverty

العمارة الدينية بمدينة سامراء (٢٢١هـ/٨٣٦م)

بقلم: الأستاذ الدكتور عبد الله كامل موسى عبده

تعد مدينة سُرَّ مَنْ رأى أو سرور من رأى (سُرَّمَرِّي - سامرّا - سامراء) (٢٢١هـ/ ٨٣٦م) التي أنشأها الخليفة أبو إسحاق محمد المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤٢م)؛ العاصمة الخامسة للدولة العباسية، بعد أربع عواصم تمثلت في الهاشميتين الأولى (قصر ابن هبيرة)، والثانية بالكوفة، ثم الهاشمية الثالثة بالأنبار في عهد الخليفة أبي العباس السفاح (١٣٢-١٣٦هـ/٧٥٠-٧٥٤م)، ثم بغداد (١٤٥-١٤٩هـ/٧٦٢-٧٦٦م) في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٥٤-٧٧٥م)[١].

ذكرها البلاذري عند ذكره أمر مدينة السلام بما نصه: «... ونزلها أمير المؤمنين المعتصم بالله، ثم شخص عنها إلى القاطول، فنزل قصر الرشيد كان ابتناه حين حفر قاطوله الذي دعاه أبا الجند؛ لقيام ما يسقي من الأرضين بأرزاق جنده، ثم بنى بالقاطول بناءً نزله، ودفع ذلك القصر إلى أشناس التركي مولاه، وهمَّ بتمصير ما هناك، وابتدأ بناء مدينة تركها، ثم رأى تمصير سر من رأى، فمصَّرها ونقل الناس إليها وأقام بها»[٢].

قال اليعقوبي: «... وقد سكنها ثمانية خلفاء منهم: المعتصم وهو ابتدأها وأنشأها، والواثق وهو هارون بن المعتصم، والمتوكل جعفر بن المعتصم، والمنتصر محمد بن المتوكل، والمستعين أحمد بن محمد بن المعتصم، والمعتز أبو عبد الله بن المتوكل، والمهتدي محمد بن الواثق، والمعتمد أحمد بن المتوكل»[٣].

وفي ذلك ذكر فريد شافعي أن ظهور مدينة سامرّا بدأ في عالم الوجود عندما وقع اختيار الخليفة المعتصم العباسي على بقعة من الأرض على نهر دجلة، تبعد نحو ١٠٠ كم إلى الشمال من بغداد؛ ليقيم عليها مدينة جديدة يسكنها هو، وجنده، وحاشيته، وخواصه؛ كي يحول دون تفاقم الفتن بين جنده الأتراك المجلوبين من أواسط آسيا من ناحية، وبين أهالي بغداد من ناحية أخرى، وحسمًا لما كان يقوم بين الجانبين من مصادمات ومعارك تراق فيها الدماء، وتهدر من جرائها الأرواح. وعُمِّرت سامراء، وتزايد اتساعها، وترامت أطرافها في سرعة غير عادية؛ إذ امتد العمران فيها على مسافة تقرب من ٢٠ كم، ووصل عرضها على ضفتي نهر دجلة نحو خمسة كيلو مترات[٤].

وأضاف فريد شافعي أن أول ما يلفت النظر في سامرا أنها أقدم مدينة إسلامية بقيت آثارها واضحة. وتبرهن بقاياها على أن تخطيطها قد خضع لنُظُم هندسية وتصميمات مدروسة، لا تكاد تضارعها في ذلك أية مدينة أخرى من المدن القديمة المعروفة. ويتضح ذلك من الصور التي التُقطت من الجو لكثير من أجزائها المترامية الأطراف، وعلى امتداد طولها الكبير، وعرضها على نهر دجلة. وتبين لنا تلك الصور مقدار ما وصلت إليه شوارعها من انتظام خطوطها، واستقامتها، وتوازيها، وتقاطعها بعضها ببعض في زوايا قائمة، أو حادة، أو منفرجة، وما ينشأ عن ذلك من مستطيلات، ومربعات، ومثلثات، تقوم فيها العمائر المختلفة أنواعًا، المتقنة بناءً، من قصور، ومنازل، وأبنية عامة مثل المساجد الجامعة الكبيرة، ثم ثكنات الجنود، وخزائن المال، وحدائق الحيوانات، والحمامات، والأسواق، والحدائق العامة، وغير ذلك، فكأنها مدينة خُططت في العصر الحديث على النُّظُم الهندسية المعروفة في علم تخطيط المدن[٥].

إحكام البناء في عهد المعتصم

وقد تميز عهد الخليفة المعتصم بإحكام البناء، فقد أمدنا الطبري بنص مهم يوضح ذلك، حيث ذكر: «وذُكر عن الفضل بن مروان أنه قال: لم يكن للمعتصم لذة في تزيين البناء، وكانت غايته في الإحكام»[٦].

عمارة جامع الخليفة المعتصم (٢٢١هـ/ ٨٣٦م)؛ الجامع الأول بسامراء (القديم)

شيد الخليفة المعتصم المسجد الجامع في طرف الأسواق، فقد أورد البلاذري: «وبنى مسجدًا جامعًا في طرف الأسواق». ولم يشيد الخليفة الواثق بالله (٢٢٧-٢٣٢هـ/ ٨٤٢-٨٤٧م) بالمدينة سوى قصر الهاروني، فقد أورد البلاذري: «وأقام هارون الواثق بالله بسر من رأى في بناء بناه وسماه الهاروني حتى توفي به»[٧]. وفي عهد الخليفة المتوكل على الله (٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٧-٨٦١م)، شهدت مدينة سامراء بناء المسجد الجامع (الثاني)، فقد أورد البلاذري: «ثم استخلف أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله - رحمه الله - في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، فأقام بالهاروني، وبنى بناء كثيرًا. وأقطع الناس في ظهر سر من رأى بالحائر الذي كان المعتصم بالله احتجره بها قطائع، فاتسعوا بها، وبنى مسجدًا جامعًا كبيرًا، وأعظم النفقة عليه، وأمر برفع منارته لتعلو أصوات المؤذنين فيها حتى نظر إليها من فراسخ، فجمع الناس فيه وتركوا المسجد الأول، ثم أنه أحدث مدينة سماها المتوكلية»[٨].

وفي ذلك أورد اليعقوبي: «... وبنى المسجد الجامع في أول الحير في موضع واسع خارج المنازل، لا يتصل به شيء من القطائع والأسواق، وأتقنه، ووسَّعه، وأحكم بناءه، وجعل فيه فوارة ماءٍ لا ينقطع ماؤها، وجعل الطرق إليه من ثلاثة صفوف واسعة عظيمة من الشارع الذي يأخذ من وادي إبراهيم بن رياح، في كل صف حوانيت، فيها أصناف التجارات والصناعات والبياعات، عرض كل صف مائة ذراع بالذراع السوداء، لئلا يضيق عليه الدخول إلى المسجد إذا حضر المسجد في الجُمَع في جيوشه وجموعه وبخيله ورَجِله، ومن كل صف إلى الصف الذي يليه دروب وسكك، فيها قطائع جماعة من عامة الناس، فاتسعت على الناس المنازل والدور. واتسع أهل الأسواق والمهن والصناعات في تلك الحوانيت والأسواق التي في صفوف المسجد الجامع. وأقطع نجاح بن سلمة الكاتب في آخر الصفوف، مما يلي قبلة المسجد. وأقطع أحمد بن إسرايل الكاتب أيضًا بالقرب من ذاك. وأقطع محمد بن موسى المنجم وإخوته، وجماعة من الكتاب والقوَّاد والهاشميين وغيرهم»[٩].

و في ذلك أورد المقدسي: «سامرَّا كانت مصرًا عظيمًا، ومستقر الخلفاء في القديم، اختطها المعتصم، وزاد فيها بعده المتوكل،

منظر عام لجامع سامراء.

وصارت مرحلة، وكانت عجيبة حسنة حتى سميت سرور من رأى، ثم اختصر فقيل سُرَّمَرِّي، وبها جامع كبير كان يختار على جامع دمشق، قد لبست حيطانه بالمينا، وجعلت فيه أساطين الرخام. وفرش به وله منارة طويلة وأمور متقنة، وكانت بلدًا جليلًا... فلما خُربت وصارت إلى ما ذكرنا سميت ساء من رأى ثم اختصرت فقيل سامرا»[١٠].

وفي ذلك أورد الحموي: «ثم ولي المتوكل فأقام بالهاروني، وبنى به أبنية كثيرة، وأقطع الناس في ظهر سر من رأى في الحيز الذي كان احتجره المعتصم، واتسع الناس بذلك، وبنى مسجدًا جامعًا، فأعظم النفقة عليه، وأمر برفع منارة لتعلو أصوات المؤذنين فيها، وحتى ينظر إليها من فراسخ، فجمع الناس فيه، وتركوا المسجد الأول»[١١].

عمارة جامع المتوكل على الله (٢٣٤-٢٣٧هـ/ ٨٤٨-٨٥١م)؛ الجامع الثاني بسامراء (الجديد)

يعد جامع سامراء من روائع العمارة الإسلامية، سواء من حيث التخطيط، أو الوحدات والعناصر المعمارية والزخرفية. فقد جاء آية من آيات الفن المعماري الإسلامي، فهو من الناحية التاريخية والأثرية يتبوأ مكانة متميزة، ليس بين مساجد العراق الأثرية فحسب، بل مساجد العالم العربي الإسلامي. فهو كما يذكر عيسى سلمان[١٢] أقدم جامع شاخص لم يُهدم، أو يُعمَّر، أو يوسَّع بعد أن تم تشييده، ولم يُضَف إليه أو يُحوَّر فيه في وقت لاحق على إنشائه، فقد أُهمل بعد أن هُجرت سامراء، وقاوم بناؤه المحكم والمتين العوامل الطبيعية والبشرية. وهو من أكبر المساجد؛ حيث تبلغ مساحته الكلية ١٦٦,٩٤٤م٢. فهو يعد فريدًا من حيث السعة، ويعد وحيدًا من حيث فخامة البناء. كما أنه مشهور بمئذنته الملوية المتميزة بشكلها الحلزوني، وارتفاعها الشاهق، وقِدَمها، فهي من أقدم مآذن العراق الباقية.

وقد تقدم أن البلاذري ذكره بما نصه: «ثم استخلف أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله... وبنى مسجدًا جامعًا كبيرًا، وأعظم النفقة عليه... فجمع الناس فيه، وتركوا المسجد الأول»، والمسجد الأول الذي ذُكر في نص البلاذري هو المسجد الجامع الذي بناه الخليفة المعتصم عند بناء مدينة سامراء في سنة ٢٢١هـ/ ٨٣٦م.

وكذلك تقدم أن اليعقوبي قد أورد في هذا الإطار ما نصه: «وبنى المسجد الجامع في أول الحير في موضع واسع خارج المنازل، لا يتصل به شيء من القطائع والأسواق، وأتقنه، ووسَّعه، وأحكم بناءه... وجعل الطرق إليه من ثلاثة صفوف واسعة عظيمة من الشارع الذي يأخذ من وادي إبراهيم بن رياح، في كل صف

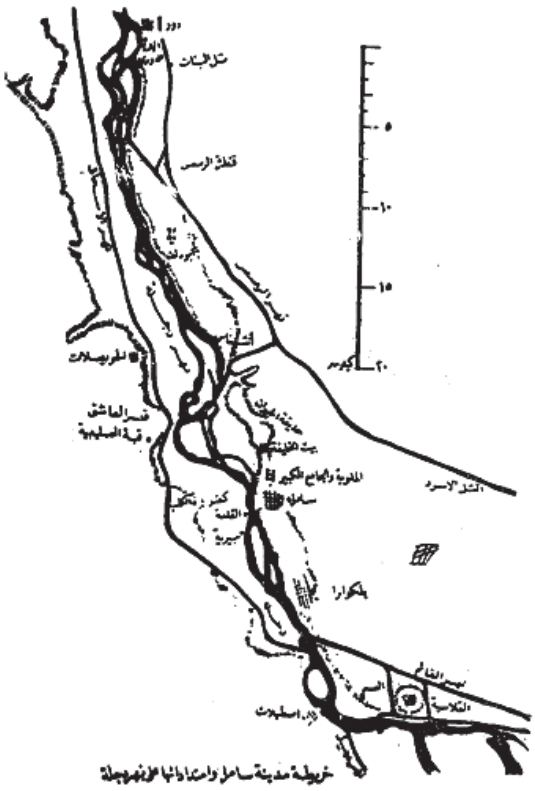

تخطيط مدينة سامراء، عن فريد شافعي.

حوانيت، فيها أصناف التجارات والصناعات والبياعات، عرض كل صف مائة ذراع بالذراع السوداء، لئلا يضيق عليه الدخول إلى المسجد إذا حضر المسجد في الجمع في جيوشه وجموعه وبخيله ورَجِله...».

كذلك تقدم أن الحموي أورد ما نصه: «ثم ولي المتوكل... وبنى مسجدًا جامعًا... فجمع الناس فيه وتركوا المسجد الأول».

وقد ذكر عيسى سلمان عند ذكره جامع المتوكل على الله أن الخليفة المعتصم بالله عندما أمر بإنشاء سامراء، جعل مسجدها الجامع في موضع يتوسط الأسواق والخطط غير متصل بها؛ حيث كشفت التنقيبات التي أجريت والصور الجوية التي التقطت للمدينة، أن الجامع يقع على شارع السريجة (الشارع الأعظم)، وأضاف أن جامع سر من رأى الحالي هو غير جامع المعتصم بالله. فمن المعروف - من وجهة نظره - أن الجامع الأول قد ضاق بالمصلين بعد أن اتسعت المدينة، وزاد عدد سكانها زيادة كبيرة في عصر ازدهارها وزيادة العمران بها، في أيام الخليفة المتوكل على الله، المعروف بحبه للبناء والتعمير، فقد أمر المتوكل بهدم الجامع الأول، وبنى مسجدًا جديدًا بدله أوسع منه وفي نفس المكان[١٣].

ولم يذكر عيسى سلمان المصادر التي استقى منها هذه المعلومات؛ حيث لم تُشِر النصوص التاريخية التي تقدم ذكرها، إلى أن الخليفة المتوكل على الله قد أمر بهدم المسجد الجامع الذي

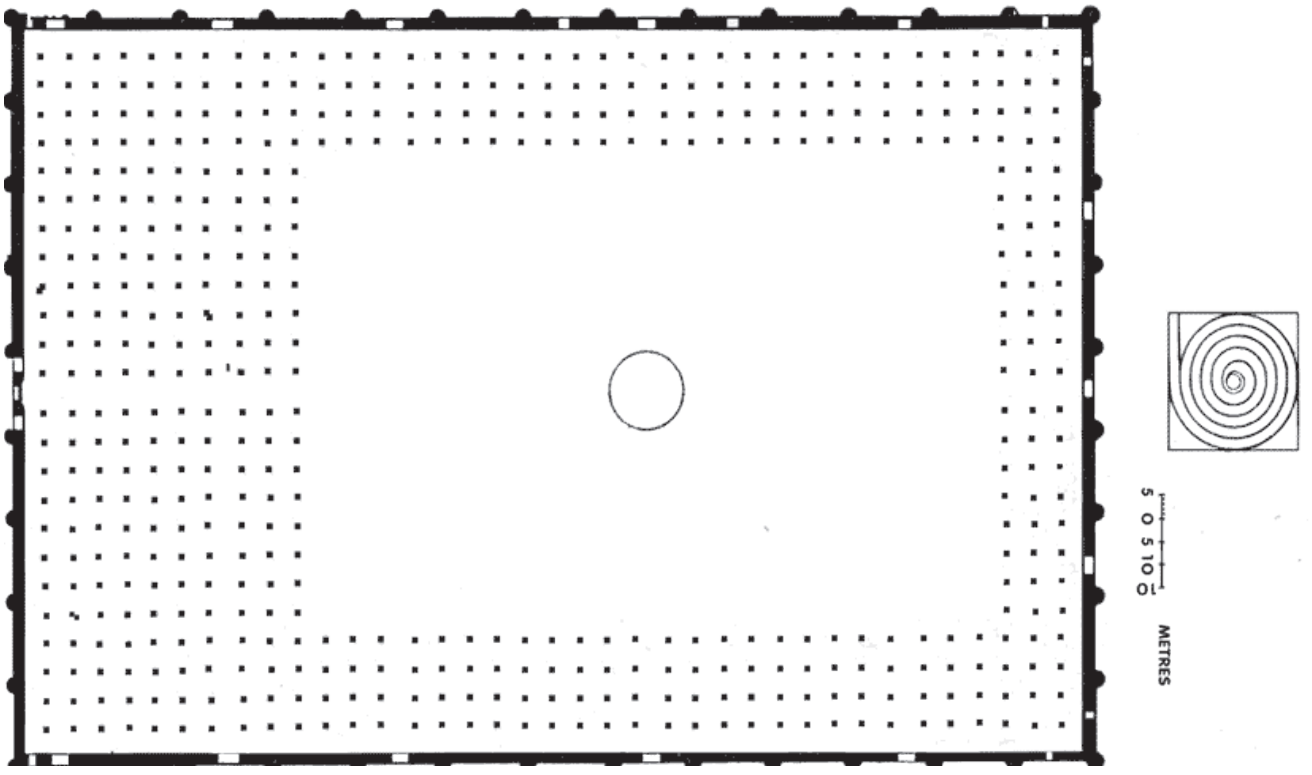

مخطط لجامع سامراء الكبير.

أنشأه الخليفة المعتصم بالله بسامراء، وإنشاء مسجده الجامع في موضعه. فالبلاذري كما تقدم، ذكر بناء جامع المتوكل على الله، وأشار إلى ترك الناس للمسجد الأول (مسجد المعتصم). كما أشار اليعقوبي إلى مسجد المعتصم، واختطاط الأسواق حوله، وأشار إلى موقع مسجد المتوكل على الله في أول الحير في موضع واسع خارج المنازل، لا يتصل به شيء من القطائع والأسواق، ولم يتطرق اليعقوبي إلى هدم المتوكل لمسجد المعتصم، أو إلى أن مسجد المتوكل بني في نفس موضع مسجد المعتصم. ويتأكد لنا هذا الأمر في نص الحموي الذي تقدم ذكره؛ أن المتوكل جمع الناس فيه، وتركوا المسجد الأول. ويدل كل ما تقدم على أن المتوكل ترك مسجد المعتصم، وشَيَّد مسجدًا آخر في موضع غير الموضع الذي شُيد فيه مسجد المعتصم.

وقد ذكر شريف يوسف أن المعتصم أسس المسجد الجامع أولًا سنة ٢٢١هـ/ ٨٣٦م، واختُطت من حوله الأسواق، والدور، والقطائع. وقد بقي هذا المسجد إلى أيام المتوكل، الذي رأى أن هذا المسجد قد ضاق بالمصلين، فبدأ بإنشاء جامع ضخم سنة ٢٣٤هـ/ ٨٤٩م بدلًا من الجامع الأول، في موضع واسع خارج المنازل عند أول الحير، ولا يتصل به شيء من القطائع والأسواق. ولم يتطرق شريف يوسف إلى ما تطرق إليه عيسى سلمان من هدم المتوكل لمسجد المعتصم، وبناء مسجده في موضعه[١٤].

والواقع أن سبب بناء المتوكل لمسجده الجديد بسامراء، وتركه مسجد المعتصم القديم؛ يرجع في اعتقادي إلى أن المتوكل أراد أن يُنسب إليه هذا المسجد، لكون المسجد القديم ينسب للمعتصم. ويتضح لنا هذا الأمر بشكل جلي في ضوء نص ياقوت الحموي الذي تقدم ذكره: «لم يبنِ أحد من الخلفاء بسر من رأى من الأبنية الجليلة مثل ما بناه المتوكل»، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لكي يتناسب المسجد الجديد مع التطور الذي شهدته سامراء في عهده؛ سواء من حيث النمو السكاني، أو التطور المعماري، أو ولع المتوكل بالبناء والتعمير، وهو الأمر الذي يتضح جليًّا في نص اليعقوبي الذي تقدم ذكره: «وجعل الطرق إليه من ثلاثة صفوف واسعة عظيمة من الشارع الذي يأخذ من وادي إبراهيم بن رياح، في كل صف حوانيت، فيها أصناف التجارات والصناعات والبياعات، عرض كل صف مائة ذراع بالذراع السوداء، لئلا يضيق عليه الدخول إلى المسجد إذا حضر المسجد في الجُمَع في جيوشه وجموعه وبخيله ورَجِله».

أما فيما يتعلق بتاريخ الإنشاء، فقد ذكر أحمد فكري أنه من المعروف أن الخليفة المتوكل هو الذي بنى المسجد الجامع في سامراء، ولكنه لا يعرف تحديدًا تاريخ بنائه له، وقد تولى المتوكل الخلافة فيما بين سنتي ٢٣٢ و٢٤٧هـ/ ٨٤٧ و٨٦١م، فيكون المسجد بذلك قد شيد فيما بين هاتين السنتين[١٥].

والواقع أنه لا يمكن قبول ما ذكره أحمد فكري على هذا النحو، فهو يؤرخ جامع سامراء الكبير بفترة حكم الخليفة المتوكل، دون أن يحدد بداية أو نهاية، حتى ولو على سبيل التقريب، علمًا بأن تاريخ البدء في البناء حدده عيسى سلمان[١٦] بسنة ٢٣٤هـ/ ٨٤٨م، أما تاريخ الفراغ فقد حدده بسنة ٢٣٧هـ/٨٥١م. ويتفق شريف يوسف[١٧] مع عيسى سلمان في التاريخين الهجريين، وإن اختلف التاريخ الميلادي، ولم يُشِر عيسى سلمان أو شريف يوسف إلى المصادر التي استقيا منها هذه التواريخ. ويؤرخ فريد شافعي[١٨] الجامع بسنة ٢٣٧هـ/ ٨٥٢م، وربما قصد تاريخ الفراغ من عمارته.

أنفق الخليفة المتوكل على بناء جامعه ما يعادل ستمائة ألف دينار. ومن الناحية المعمارية فقد أحاطه المعمار بفضاء عرف بالزيادة، وكانت هذه الزيادة تحيط بجوانبه الشرقية، والغربية، والشمالية. وقد حُددت هذه الزيادة بسور ضخم، شُيد بمادة بنائية تختلف عن تلك التى شيد بها المسجد من الداخل، أي أن المسجد كان يشتمل على سورين: أحدهما خارجي يحدد الفضاء أو الزيادة، والآخر داخلي يحدد الصحن والظلات. وبعد أن أُهمل المسجد، بعد أن هُجرت سامراء؛ تهدم السور الخارجي، وتحول إلى خط ترابي مرتفع يشير إلى حدود المسجد من الخارج، وسقطت أجزاء كبيرة من الجدار الداخلي للمسجد، وانهارت سقوف ظلة القبلة والمجنبات والدعائم التي كانت ترتكز عليها. وتبين الصور الجوية كما يذكر عيسى سلمان[١٩] للأثر، والتي التقطت له في بداية القرن الرابع عشر الهجري/ العشرين الميلادي؛ ما تبقى من جدرانه، ومئذنته، والأكوام الترابية التي تبين تخطيطه، وسعته.

وقد جلب جامع المتوكل انتباه الرحالة الأوربيين قبل القرن العشرين الميلادي، وجرت محاولات من قبل المتخصصين منهم، خاصة في الربع الأول من القرن العشرين الميلادي للتنقيب عنه، ووضع مخططات له، وقامت بعد ذلك هيئات فنية من مديرية الآثار العامة بأعمال التحري والتنقيب عنه، ورفعت كميات كبيرة من الأنقاض داخل حدوده، وتُتبعتْ أجزاء من سوره الخارجي. وبعد عمل جهيد متواصل، تم وضع مخطط علمي للمسجد، وتثبيت أبعاده، وتفاصيل قياسات بلاطاته وظلاته، وغيرها من التفاصيل الهندسية، والمعمارية، والزخرفية.

شُيد المسجد على بقعة مرتفعة نسبيًّا عما يجاورها من الأرض، لذا يمكن مشاهدته من مسافات بعيدة من خارج المدينة. وهو مستطيل الشكل، تتجه جدرانه نحو الاتجاهات الأربعة تقريبًا، على غرار معظم المساجد في العراق، وتمتد جدران سوره الخارجي التي شيدت من اللَّبِن والطين من الشمال إلى الجنوب كما يذكر

مئذنة جامع سامراء الكبير.

عيسى سلمان[٢٠] إلى ٤٤٤م، ومن الشرق إلى الغرب ٣٧٦م، أي ما يعادل – كما يذكر أحمد فكري[٢١] – مساحة أربعين فدانًا. وكشفت التحريات التي أجريت فيه أنه كان مدعمًا بأبراج عددها ٦٨ برجًا، وهي نصف دائرية ترتكز على قواعد مستطيلة، فيما عدا أبراج الأركان أو الزوايا، فهي شبه دائرية ترتكز على قواعد مربعة. ويحيط السور الخارجي بفضاء أو زيادة – تقدم ذكرها – تفصل ما بين السور الخارجي والسور الداخلي للمسجد، ويعتقد أنها شيدت بغرض عزل الجامع عن محيطه الخارجي الذي يتميز بالضجيج في المناطق المزدحمة حوله من جهة، واستخدام هذه الزيادة للصلاة إذا ما ضاق المسجد بالمصلين من جهة أخرى.

أما المسجد من الداخل، أي داخل الأسوار الخارجية، فقد جاء تخطيطه مستطيل الشكل أيضًا، أبعاده من الخارج ٢٤٨,٧٠م طولًا، و١٦٥,٨٠م عرضًا، ومن الداخل ٢٣٨,٦٠م طولًا، وقيل ٢٤٠م، و١٥٥,٦٠م عرضًا، وقيل ١٥٦م، وقد قُسم هذا المستطيل إلى صحن مستطيل يمتد رأسيًّا من الشمال إلى الجنوب، وأربع

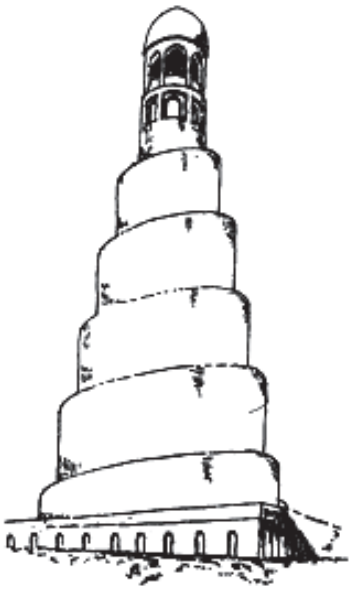

مئذنة جامع سامراء الكبير، عن فريد شافعي.

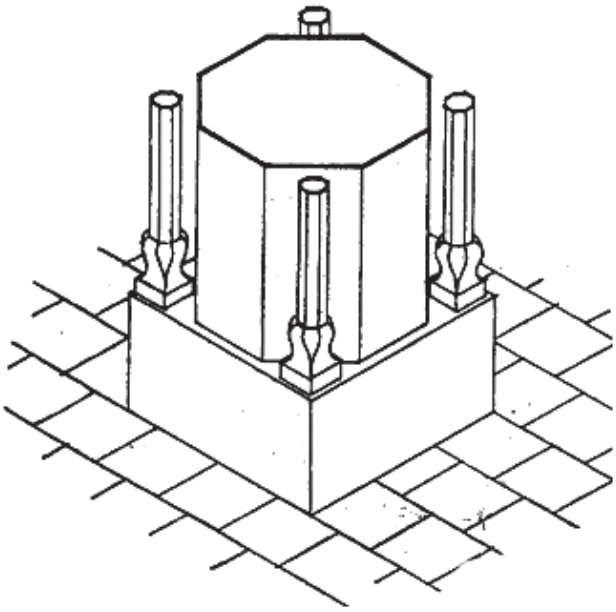

دعامة من جامع سامراء الكبير، عن فريد شافعي.

ظلات تحيط به من الجوانب الأربعة، بواقع ظلة في كل جانب، أكبرها وأعمقها ظلة القبلة.

وتفصيل ذلك – كما يذكر أحمد فكري[٢٢] فيما يتعلق بظلة القبلة – أنه من نتائج الحفائر التي أُجريت في هذا المسجد، التي نشرها هرتزفلد Herzfeld لأول مرة سنة ١٣٣١هـ/ ١٩١٢م؛ تبين أن طول جدار القبلة ١٥٠م، وجوف ظلة القبلة ٦٢م، أي أنها عبارة عن مساحة مستطيلة تتكون من تسع بلاطات موازية لجدار القبلة، يحدها تسعة صفوف من الدعامات، يشتمل كل صف منها على ٢٤ دعامة، ومن ٢٥ بلاطة عمودية من خلال أربعة وعشرين صفًّا من الدعامات العمودية، وبلغ عدد الدعامات في ظلة القبلة وحدها ٢١٦ دعامة.

وتتميز بلاطة المحراب بسعتها عن غيرها من البلاطات؛ حيث يبلغ عرضها ٤,٢٠م، وكانت الدعامات مربعة القاعدة، يبلغ طول كل ضلع منها ٢م، وكانت تعلو إلى ارتفاع يقرب من ١٠,٥٠م، على هيئة مضلع من ثمانية أضلاع، يحف بكل ركن من أركانه الأربعة أسطوانة من الرخام. وكان المحراب يتوسط جدار القبلة، وهو عبارة عن طاقة مستطيلة، مقاساتها ٢,٦٠م طولاً، وحوالي ٢م عرضًا. وتطل ظلة القبلة على الصحن من خلال ١٧ فتحة و١٦ دعامة.

وكان يحيط بصحن المسجد ظلات جانبية أو مجنبات في جهاته الثلاث، ففي الظلة الشمالية المقابلة لظلة القبلة توجد ثلاث بلاطات تمتد بنفس أسلوب بلاطات ظلة القبلة، وفي كلٍّ من الظلتين الشرقية والغربية أربع بلاطات، تحدها أربعة صفوف من الدعامات في اتجاه جدار القبلة، يشتمل كل صف منها على ٢١ دعامة، وتطل الظلتان الشرقية والغربية على الصحن من خلال ٢٢ فتحة و٢١ دعامة، وليس ٢٣ بائكة كما يذكر عيسى سلمان[٢٣]، وقد بلغت جملة عدد الدعامات الداخلية في المسجد ٤٥٦ دعامة كما يذكر أحمد فكري[٢٤].

أما الصحن فهو مستطيل الشكل يمتد رأسيًّا من الشمال إلى الجنوب كما تقدم، تشرف عليه ظلة القبلة من خلال ١٧ فتحة أو دعامة، وكذلك الظلة الشمالية المقابلة لظلة القبلة، كما تشرف عليه الظلة الشرقية من خلال ٢٢ فتحة أو دعامة، وكذلك الظلة الغربية، وكانت تتوسطه نافورة وميضأة، هذا فيما يتعلق بالتخطيط. أما فيما يتعلق بمادة البناء فقد شيد المسجد بالطابوق والجص، وفرشت أرضيته بطابوق مربع صف – كما يذكر عيسى سلمان[٢٥] – بإتقان ودقة، وشمل الصحن والظلات.

وتتسم جدران المسجد بارتفاعها الذي يبلغ ١١م، وبسمكها الذي يبلغ ٢,٧٠م[٢٦]، وتدعم جدران المسجد أبراج على هيئة نصف دائرية، يبلغ عددها ٤٤ برجًا، ترتفع بارتفاع الجدران، وترتكز على قواعد مستطيلة، أما أبراج الأركان فهي على هيئة شبه دائرية ترتكز على قواعد مربعة، ويبلغ قطر الأبراج الأولى ٣,٦٠م، أما الأبراج الركنية فيبلغ قطرها ٥م، والمسافة بين كل برج وآخر ١٥م. وقد وزعت هذه الأبراج بشكل متناسق على جدران المسجد؛ حيث يشتمل السور الشرقي على ١٢ برجًا، ومثل ذلك في السور الغربي المقابل له، كما يشتمل السور الجنوبي وهو جدار القبلة على ثمانية أبراج، ومثل ذلك في السور الشمالي، فضلًا عن أربعة أبراج ركنية. وتقع أبراج الجانب الشرقي على محور أبراج الجانب الغربي، كما تقع أبراج الجانب الجنوبي على محور أبراج الجانب الشمالي في تناظر معماري بديع سواء في توزيع الأبراج أو المسافات بينها. وفي هذا الإطار، فإن ما ذكره شريف يوسف[٢٧] من أن الجدران دُعِّمت من الخارج بأبراج نصف دائرية عددها ٤٠ برجًا، وأن عدد الأبراج في كلٍّ من الضلعين الشرقي والغربي عشرة أبراج، وفي الضلعين الشمالي والجنوبي ثمانية أبراج، يضاف إلى ذلك أربعة أبراج ركنية؛ غير صحيح؛ حيث إن العدد كما تقدم ٤٤ برجًا.

ويُتَوصل إلى داخل المسجد من خلال خمسة عشر مدخلًا – كما يذكر عيسى سلمان[٢٨] – وزعت ثلاثة على الجدار الشمالي، يتوسط أحدها الجدار، ويقع على الخط المحوري الذي ينتهي بالمحراب، كما يقع على منتصف قاعدة المئذنة في الزيادة الشمالية، وجاء توزيع المدخلين على جانبي هذا المدخل بشكل متناسق. أما جدار القبلة فيشتمل على مدخلين على جانبي المحراب، بواقع مدخل في كل جانب، يُتَوصل منهما إلى المنشآت القائمة في هذه الجهة من عمارة المسجد من الخارج، وهي منشآت بنيت للخليفة كاستراحة قبل أن يدخل إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة أو غير ذلك. ويشتمل كلٌّ من الجدارين الشرقي والغربي على خمسة مداخل متناظرة، ويؤدي اثنان منها في كل جدار إلى ظلة القبلة، أما بقية المداخل فتؤدي إلى الظلتين الشرقية والغربية، وهي متناظرة أيضًا، وعقود هذه الأبواب مستقيمة، وعلى ارتفاع ٦م، تتوجها نوافذ ذات عقود مدببة، عددها ثلاث فوق كل مدخل، وعرض هذه المداخل من ٣,٥٠ إلى ٤,٥٠م. ويذكر أحمد فكري[٢٩] في هذا الصدد أن أبواب المسجد تعددت تبعًا لاتساع أرجائه، فكانت جملتها ١٦ بابًا، منها اثنان يحفان بالمحراب، ومثلهما في جدار المؤخر، وخمسة في الجدار الشرقي، وسبعة في الجدار الغربي. وفي رواية ثالثة يذكر شريف يوسف[٣٠] أن للمسجد سبعة عشر مدخلًا، اثنين في الضلع الجنوبي، وتم استحداث مدخلين منها في وقت لاحق من زمن بناء الضلع الغربي، وتبلغ سعة كل مدخل ٢م تقريبًا، وسعة كل مدخل صغير ١,٢٥م، من هذه الأبواب خمسة في الجانب الشمالي للجامع، وفي الحائط الغربي ثمانية يضاف إليها باب صغير يلي الركن الجنوبي، وتتقابل في تناسق أبواب الجانب الشرقي مع

جامع أبي دُلفَ.

مواقع أبواب الجانب الغربي عدا البابين الرابع والسادس فلا وجود لهما في هذا الضلع، أما في الجانب الجنوبي فلا يوجد سوى ثلاث فتحات، وقد ثبت أن الفتحة الوسطى لم تكن بابًا بل محرابًا، وقد سقطت جميع أجزاء البناء التي كانت تعلو الأبواب الكبيرة، ويتضح من الأكتاف الجانبية للأبواب وجود عقود رابطة بينها تقويها كتل خشبية، ومن المحتمل أنه كان يوجد نوافذ صغيرة معقودة تعلو الأبواب الكبيرة.

ويتوسط المحراب جدار القبلة، وهو من حنية يتوجها عقد مدبب، يبلغ عمقها ١,٧٥م، وتبلغ سعة فتحتها ٢,٦٠م، وعلى ضوء ما تبقى من المحراب فقد أعيد بناؤه على مساحة واسعة نسبيًّا، وارتفاع حوالي ٨م، والحنية ذات عقدين مدببين يرتكزان على أعمدة أسطوانية، وتشكل طاقية المحراب القسم العلوي منه على هيئة نصف قبة مدببة ذات حنيتين ركنيتين، ويؤطر هذا القسم من المحراب إطار مستطيل ذو وجه مقعر قليلًا، يحيط به من الخارج إطار آخر أضيق منه ذو وجه مستوٍ وبارز قليلًا، وهناك إطار آخر مستطيل أعرض قليلًا من الإطارين السابقين يحيط بهما، وينخفض بوضوح عن مستوى وجه جدار القبلة والإطار السابق، وهو مقعر أيضًا، وتكوين المحراب بشكل عام يتسم بالروعة في مظهره، وبالتناسق في أجزائه.

ويشتمل جدار القبلة على أربع وعشرين نافذة تقع في القسم العلوي منه، وتفتح كل نافذة منها على بلاطة من بلاطات ظلة القبلة فيما عدا بلاطة المحراب، وقد نفذت بغرض الإضاءة والتهوية، وهو الأمر الذي يتضح جليًّا من تصميمها وتنفيذها، فهي من الخارج مستطيلة، أما من الداخل فذات شكل جميل يتناسب مع ما كان عليه جدار القبلة من الداخل من روعة زخرفية، فتظهر هذه النوافذ داخل شكل مستطيل؛ حيث ترتد إلى الداخل قليلًا، وهي عبارة عن فتحة مستطيلة، يتوجها عقد خماسي مفصص، يرتكز على عمودين مندمجين، وسعة النوافذ من الداخل أكبر من سعتها من الخارج، وتقع على مستوى أقل من مستواها في الخارج، بحيث تنساب انحدارًا داخل الجدار[٣١].

وتزين جدران المسجد من أعلى من الخارج سلسلة من دوائر مقعرة مؤطرة بشكل مربع منخفض عن مستوى وجه الجدار، ويبلغ قطر كلٍّ من هذه الدوائر مترًا واحدًا، ويبلغ عددها ست دوائر بين كل برجين، ويتوسطها أحيانًا قنوات مستطيلة لتصريف ماء المطر. وتجدر الإشارة إلى أن عدد الدوائر بين برجي الجزء الغربي والجزء الشرقي من الجدار الجنوبي خمس دوائر فقط، ويقع هذا الشريط الزخرفي الغائر فوق فتحات النوافذ في الجدار الجنوبي. ويرى عيسى سلمان أن المعمار اتبع تقنية خاصة في الحصول على الأشكال المطلوبة وبشكل مفرغ أو غائر، وذلك بطريقة صف الطابوق في شكل انحداري أو انسيابي إلى الداخل، فحصل على الشكل المطلوب الذي لا يستطيع أن يحفره في طبقة من كساء جص؛ حيث يحتاج إلى أن يجعل هذا الكساء سميكًا جدًّا قد

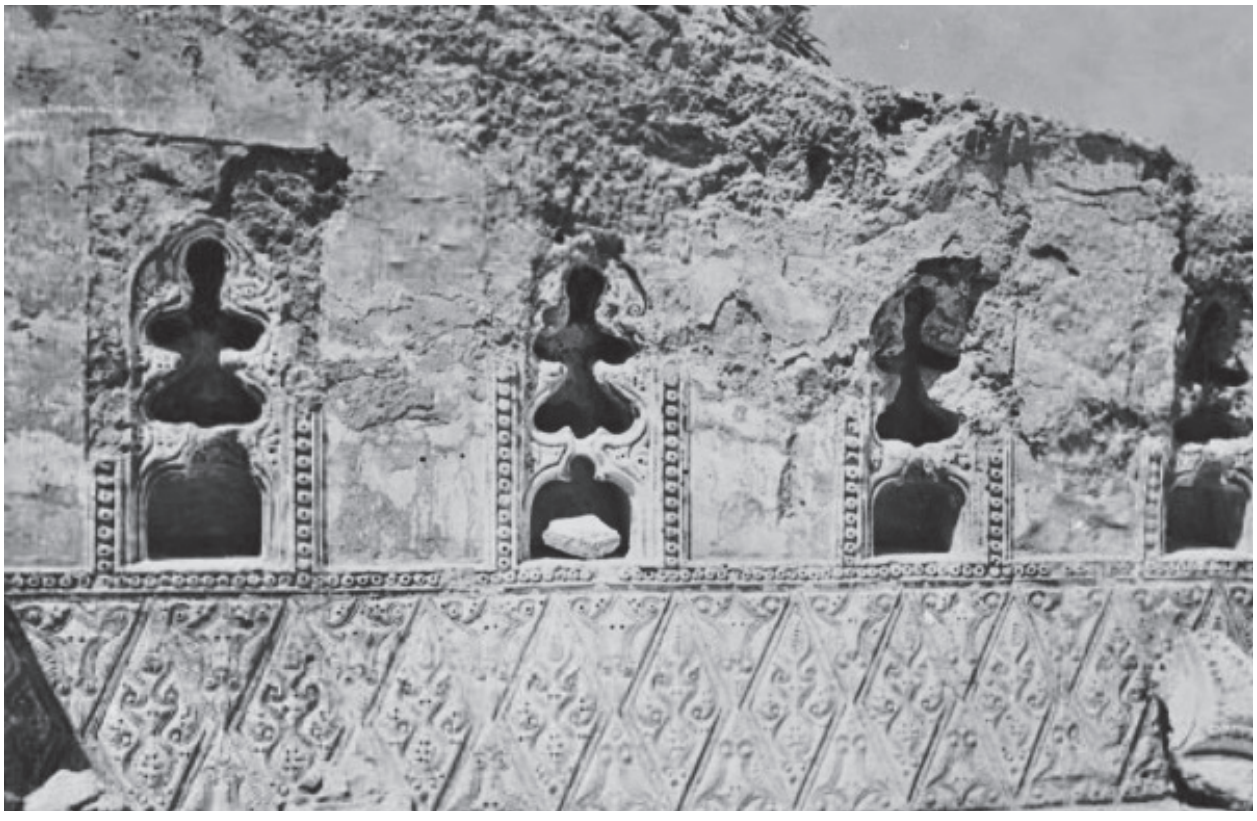

الزخارف الجصية بجامع سامراء الكبير.

لا يثبت على وجه الجدار، ويحتمل جدًّا أن لهذه الدوائر أهمية في تخفيف ضغط الرياح على هذه الجدران الطويلة والمرتفعة[٣٢].

وكشفت التنقيبات عن بقايا قواعد الدعامات وأجزاء منها، وهي مثمنة الشكل كما تقدم، ترتكز على قواعد مربعة، تزدان بأعمدة رخامية أسطوانية الشكل، تقع في أركان القاعدة المربعة، تلتصق بالوجه الذي تزينه، أي أنها أربعة أعمدة لكل دعامة، ويحتمل أن هذه الدعامات كانت تحمل عقودًا مدببة، يرتكز عليها سقف المسجد، واستخدمت الأخشاب الضخمة لربط العقود؛ حيث ما زالت الحُفَر المخصصة لتثبيت هذه الأخشاب باقية على طول جدران المسجد، ويحتمل أيضًا أن أوجه الدعامات التي كانت تحمل عقود البوائك كانت تزدان بحنايا أو مشكاوات ذات عقود مدببة، ترتكز على أعمدة مندمجة؛ حيث استُخدم هذا الأسلوب في زخرفة القسم العلوي من المئذنة، وفي أوجه الجدران المطلة على الصحن في جامع أبي دلف[٣٣].

أما فيما يتعلق بالمئذنة فتعد أقدم ما بقي من مآذن العراق وأروعها، وهي تشتهر بشكلها الحلزوني، وتعرف بين الناس بالملوية، والتي صار المسجد يعرف بها، وقد بنيت على مسافة ٢٧,٢٠م إلى شمال الجدار الشمالي للمسجد في الزيادة الشمالية، وتقع على الخط المحوري الذي يربط بينها وبين المحراب كما تقدم، وتتكون من بدن يرتكز على قاعدة مربعة تتكون من مستويين، يبلغ طول ضلع المستوى السفلي ٣١,١٨٠م، أما المستوى العلوي أسفل بدن المئذنة فيبلغ طول ضلعه ٣٠,٥٠م، وترتفع القاعدة عن مستوى سطح الأرض بمقدار ٤,٢٠م، وتزدان أوجه المستوى الأول أو السفلي بحنايا ذات عقود مدببة، عددها تسع فى كلٍّ من الجوانب الشمالية، والغربية، والشرقية، وسبع في الجانب الجنوبي الذي تشغله الصعود إلى المئذنة، والقاعدة تتصل بالمسجد من خلال منحدر طوله ٢٥م، وعرضه ١٢م، يبعد عن جدار الجامع الشمالي بمقدار ٢,٢٥م، ويرتكز عليها بدن المئذنة الذي يرتفع بمقدار ٥٠م، فهي فريدة في تصميمها وارتفاعها. وهو الأمر الذي يتوافق وما ورد من نصوص تاريخية، فقد أورد البلاذري كما تقدم: «وأمر برفع منارته لتعلو أصوات المؤذنين فيها حتى نظر إليها من فراسخ»، وأورد الحموي كما تقدم: «وأمر برفع منارة لتعلو أصوات المؤذنين فيها وحتى ينظر إليها من فراسخ». ويتكون بدن المئذنة من ست أسطوانات بنيت بعضها فوق بعض، وبتدرج متناسق ورائع، بحيث يقل حجم الأسطوانات بهيئة انسيابية كما يذكر عيسى سلمان[٣٤] بين القاعدة المربعة الواسعة نسبيًّا والقمة الأسطوانية الضيقة نسبيًّا، والبدن مصمت يدور حوله سلم المئذنة في اتجاه معاكس لسير عقارب الساعة، وتبدأ الدرجات الأولى عند منتصف سطح القاعدة الجنوبي، أي على الخط المحوري للمسجد، ويدور الصاعد إلى قمة الملوية خمس مرات حول البدن، ثم ينعطف يسارًا عند منتصف قاعدة الطبقة السادسة والأخيرة؛ حيث يخترق السلم هذا القسم بهيئة عمودية تدريجية ليؤدي إلى القمة التي يبلغ قطرها ٣م. وتزخرف النصف العلوي من الأسطوانة السادسة ثماني حنايا متجاورة، تتوجها عقود مدببة، ترتكز أطرافها على أعمدة شبه أسطوانية مندمجة في الجدران، وتشكل إحدى هذه الحنايا قبوًا للسلم؛ حيث يخترق السلم العلوي من المئذنة.

ويشير عيسى سلمان أنه تم إكمال صيانة جدران الجامع، وإعادة بناء ما تهدم منها، كما تم صيانة المئذنة، فعاد إلى الجامع شكله الأول وروعته[٣٥]. ويذكر عيسى سلمان أن المئذنة الملوية ستظل فريدة بين مآذن المساجد العربية الإسلامية، رغم محاولات عدد من المتخصصين في شئون العمارة الإسلامية، في إيجاد صلة مباشرة أو غير مباشرة بينها وبين عدد من الأبراج المدرجة في العراق والأقطار المجاورة، ولكن الفاصل الزمني شاسع بين الملوية وتلك الأبراج السومرية والآشورية، والاختلاف واضح في التكوين والغرض[٣٦].

ويتناول فريد شافعي المئذنة بقوله إن الظاهرة المعمارية الثانية في عمائر سامرا بعد ظاهرة البدنات هي ابتكار المآذن الملوية، فهي من أكثر العناصر الإسلامية طرافة لا في سامرا فحسب بل وفي العالم الإسلامي كله وغير الإسلامي؛ ذلك أنها تختلف عن جميع المآذن والأبراج العالية، بأن السلم الذي يصعد إلى قمتها لم يوضع بداخل المئذنة كما هو مألوف ومتَّبع في العالم كله، بل يدور مرتفعًا حول بدن المئذنة من الخارج حتى ينتهي إلى الجوسق الرشيق الذي يتوجها، مما أعطى تلك الهيئة الفريدة في نوعها. ومن المرجح أن فكرة السلم الصاعد الذي يلتف من الخارج، ويقتطع من جسم البناء ما يعادل عرضه قد أوحت بها فكرة مشابهة في العراق نفسه في المعبد الآشوري المسمى بالزيقورات، وكانت بقايا منه ما زالت موجودة، وكشف عنها منذ نحو مائة سنة في منطقة خورسابادا القديمة. التي تقع على بعد نحو ٢٥ كم إلى الشمال من مدينة الموصل، غير أن ذلك النوع من المعابد يتميز بأن له نسبًا ضخمة وأضلاعًا متعامدة، تجعل انحدار السلم يسير مستقيمًا حول الأضلاع، مما يترك للفنانين المسلمين الفضل في إكساب الملوية ذلك الشكل الإسلامي الجذاب الجديد من حيث استدارتها، ورشاقتها، وطرافتها[٣٧].

الهوامش

(١) عبد الله كامل موسى، **العمارة الإسلامية في الجزيرة العربية والعالم الإسلامي حتى نهاية العصر العباسي** (الإسكندرية: دار الوفاء، ٢٠١٨): ٢٥٥-٢٦٤.

(٢) أبو بكر أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذُري (ت ٢٧٩ هـ)، **فتوح البلدان** (بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٣): ٢٩١.

(٣) أبو العباس أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب ابن واضح الكاتب العباسي (اليعقوبي، ت ٢٨٤ هـ)، **البلدان**، السلسلة الجغرافية ٦ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨): ٢٦.

(٤) فريد شافعي، **العمارة العربية في مصر الإسلامية**، مج. ١، **عصر الولاة** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤): ٣٩٩.

(٥) المرجع السابق: ٤٠١-٤٠٢.

(٦) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي الطبري (ت ٣١٠ هـ)، **تاريخ الطبري**: **تاريخ الأمم والملوك**، مج. ٥، **من سنة ١٩١ للهجرة لغاية السنة ٣٠٢ للهجرة** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧): ٢٧٢.

(٧) البلاذُري، **فتوح البلدان**: ٢٩١.

(٨) المرجع السابق.

(٩) اليعقوبي، **البلدان**: ٣٤-٣٥.

(١٠) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي (المقدسي البشاري، ت نحو ٣٨٠ هـ)، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط. ٣ (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩١): ١٢٢.

(١١) شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت ٦٢٦ هـ)، **معجم البلدان**، ط. ٢، مج. ٣، **الذال-الضاد** (بيروت: دار صادر، ١٩٩٥): ١٧٥.

(١٢) عيسى سلمان وآخرون، **العمارات العربية الإسلامية في العراق**، مج. ١، **تخطيط مدن ومساجد** (بغداد، ١٩٨٢): ١١٠.

(١٣) المرجع السابق: ١١٠-١١١؛ نخبة من الباحثين العراقيين، **حضارة العراق**، مج. ٩، **الآثار العربية الإسلامية**، العصور العربية الإسلامية ٥ (بغداد، ١٩٨٥): ٥١-٥٢.

(١٤) شريف يوسف، **تاريخ فن العمارة العراقية في مختلف العصور**، السلسلة الفنية ٤٩ (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام؛ دار الرشيد، ١٩٨٢): ٣٢٤.

(١٥) أحمد فكري، **مساجد القاهرة ومدارسها: المدخل** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦١): ٢٣٧.

(١٦) سلمان وآخرون، **العمارات العربية الإسلامية**، مج. ١: ١١١.

(١٧) يوسف، **تاريخ فن العمارة**: ٣٢٤.

(١٨) شافعي، **العمارة العربية**، مج. ١: ٤١٠.

(١٩) سلمان وآخرون، **العمارات العربية الإسلامية**، مج. ١: ١١١.

(٢٠) المرجع السابق: ١١١-١١٢.

(٢١) فكري، **مساجد القاهرة**: ٢٣٧.

(٢٢) المرجع السابق: ٢٣٨.

(٢٣) سلمان وآخرون، **العمارات العربية الإسلامية**، مج. ١: ١١٢.

(٢٤) فكري، **مساجد القاهرة**: ٢٣٨.

(٢٥) سلمان وآخرون، **العمارات العربية الإسلامية**، مج. ١: ١١٢-١١٣.

(٢٦) ذكر شريف يوسف أن السمك متران، وذكر أحمد فكري: «يزيد سمكها عن المترين والنصف»، انظر: يوسف، **تاريخ فن العمارة**: ٣٢٥؛ فكري، **مساجد القاهرة**: ٢٣٧.

(٢٧) يوسف، **تاريخ فن العمارة**: ٣٢٥.

(٢٨) سلمان وآخرون، **العمارات العربية الإسلامية**، مج. ١: ١١٣.

(٢٩) فكري، **مساجد القاهرة**: ٢٣٨.

(٣٠) يوسف، **تاريخ فن العمارة**: ٣٢٨-٣٢٩.

(٣١) أورد شريف يوسف ٢٥ نافذة، انظر: سلمان وآخرون، **العمارات العربية الإسلامية**، مج. ١: ١١٦؛ يوسف، **تاريخ فن العمارة**: ٣٣٠.

(٣٢) سلمان وآخرون، **العمارات العربية الإسلامية**، مج. ١: ١١٦-١١٨.

(٣٣) المرجع السابق: ١١٨-١٢٠.

(٣٤) أورد شريف يوسف أن الجانب الجنوبي يشتمل على ست، بينما ذكر عيسى سلمان أنها سبع. لمزيد من التفاصيل، انظر: يوسف، **تاريخ فن العمارة**: ٣٣٠-٣٣١.

(٣٥) سلمان وآخرون، **العمارات العربية الإسلامية**، مج. ١: ١٢٠.

(٣٦) المرجع السابق: ١٢٤؛ يوسف، **تاريخ فن العمارة**: ٣٣١-٣٣٣.

(٣٧) شافعي، **العمارة العربية**، مج. ١: ٤٠٩-٤١٠.

من إصدارات مكتبة الإسكندرية

أبحاث المؤتمر الدولي

الحضارة الإسلامية في الأندلس